

الطب وآثاره بعاصمة مراکش

عناية الدول المغربية بعلم الطب - مشاهير الاطباء

العلاج والمستشفيات في عهد الحضارة الاسلامية

للغيد البجاجة سيدي محمد بن احمد العبدوي الكانوني

منذ تأسست العاصمة المراكشية أواسط القرن الخامس الهجري اخذ ملوكها من الدولتين اللتونية والموحدية على عواتقهم بها نشر وسائل الرقي وال عمران ورفع مستوى العلوم والمعارف فجلبوا لها من أهل كل فن فحواله ومن أهل كل صنعة اربابها حيث كانت الدولة حينذاك تضم تحت كنفها جميع الشمال الافريقي باقسامه الثلاثة وغالب الاندلس فصارت بذلك مركز السياسة والحضارة الراقية وخلفت قرطبة في سياستها و رقيها وبغداد في حضارتها وتفوقها ، ومن جملة المهن الجليلة التي قارنت هذه النهضة الحيوية مهنة الطب اذ هو ضروري لانتظام العمران وحفظه من التلاشي والاضمحلال ويرقيه في الشعوب يتهياً للمرء قضاء لباتته من الحياة واداء واجباته فيها على احسن الوجوه واكملها ، ولذلك خصصت الكلام عليه في هذه المقالة الوجيزة .

الطب في الدولة اللتونية : كانت هذه الدولة التي اسست مراکش قد نشرت رواق العدل وحسن الرعاية على كامل المغرب وغالب الاندلس فانقطع اليها من اهل كل فن اربابه فاستقت بها نواميس الرقي وال عمران حتى بلغت اوج عظمتها الخالدة في التاريخ ، ومن الذين تشرفت بهم من فحول الاطباء ابناء زهر الاشبيليون على ما سنذكره :

الوزير أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر الابادي الاشبيلي : احد حكماء الاسلام له على الطب يد بيضاء كان له من امير المؤمنين علي بن يوسف المكانة السامية والمنزلة العالية التي تتناسب مع علي قدره وتقدمه الباهر في صناعته على اهل عصره حتى ذكر في المعلمة الاسلامية الجديدة انه تولي وزارته ، وناهيك بقول ابن دحين فيه : وزير ذلك الدهر وعظيمه وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه ، توفي سنة ٥٢٥ .

ولده الوزير ابو مروان عبد الملك بن زهر : اخذ الطب عن والده وفاقه في جودة العلاج وحسن التدبير ، وكفاه شرفاً كون

أبي الوليد ابن رشد حكيم الاسلام كان يثني عليه ويفصح بتقدمه في الفن واتقانه اياه ويثني على كتبه الطيبة ، وله في الفن آثار جليلة منها : كتاب الاقتصاد في اصلاح الاجساد الفه للامير ابراهيم ابن يوسف بن تاشفين وفرغ من تأليفه سنة ٥١٥ ، وكتاب التيسير في المداواة والتدبير ، قال صاحب كشف الظنون ص ٣١٤ ج ١ أوله الحمد لله الذي كل ما يقع عليه الحواس يشهد له بالوحدانية الخ ذكر انه مامور بتأليفه ، وذكر فيه المعالجات فقط ثم ذيله بكتاب سماه الجامع هـ . وهذا الكتاب سارت به الركبان في المشرق والمغرب ثم في اوروبا اخيراً على ما ذكره بعض الباحثين وذكر المقرئ في نفح الطيب نقلاً عن ابن سعيده انه له كتاب الاغذية قال وهو مغتبط به في المشرق والمغرب هـ . ولست ادري هل هو الاول أو غيره وكانت وفاته سنة ٥٥٧ ، ولا بد أن يكون هناك اطباء كثيرون في ذلك العصر وان كنا الآن لا نستحضر اسماءهم لضيق الوقت لان وفرتهم بها من لوازم حضارتها الراقية .

الطب في الدولة الموحدية : كانت هذه الدولة قد اقتدت بسابقتها في اتخاذ مراکش عاصمة الشمال الافريقي والاندلس وكانت ارقى منها حضارة واوسع مجالاً في العلوم الرياضية والتشريعية ، يقول عنها سيديليو عند تحدته عن جهودهم بالاندلس ، انهم انشؤا الجوامع والمآذن والاماكن العامة والمستشفيات في كل بلد من بلدانهم واقاموا الطرق والجسور والسدود وحفروا الابار واجروا الانهار هـ . وكان يوسف بن عبد المومن الذي بويع بعد والده سنة ٥٥٨ - مع حفظه للقرآن وصحيح البخاري واشعار العرب - سما الى الجمع بين الشريعة والحكمة فجمع من كتب الحكمة والفلسفة الشيء الكثير حتى كانت له دار كتب ، وجمع حوله اساطين علماء الشريعة والفلسفة ولم يزل يستجلبهم من الاقطار الى حضرته وبأخذ عنهم حتى مات رحمه الله عليه سنة ٥٨٠ ، وكان من الاطباء والحكماء الملتفين حوله الوزير الطبيب الحكيم أبو بكر ابن الطفيل وكان حافظاً بصناعة الطب والجراحات له في الطب والفلسفة آثار جليلة ، ونال من الحظوة ورفعة الشان عند يوسف السلطان ما لم يكن لغيره وقد توفي سنة ٥٨٠ ، والقاضي حكيم الاسلام أبو الوليد ابن رشد الحفيد صاحب الكليات في الطب الذي كان يفرع الى فتواه في الطب كما يفرع الى فتواه في الفقه ، استقدمه يوسف الى مراکش سنة ٥٦٨ بارشاد ابن الطفيل ثم مكث مدة

ورجع الى الاندلس حتى استقدمه ايضاً يعقوب بعد محنته المشهورة فاجل قدره ورجع فيه لاجل راي وتوفي بمراكش سنة ٥٩٥ ثم حمل للانندلس، ومن اطباء عصره الطبيب الحكيم سعيد الغماري احد الاطباء الذين كانوا ينتابون حضرته وينالهم انعامه، وكان يعقوب المنصور بن يوسف اعنى ملوك هذه الدولة بتخليد الآثار الخيرية قال عنه بعض المؤرخين انه بنى المساجد والمدارس في جميع المملكة وبنى المارستانات (المستشفيات) للمرضى والمجانين واجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة واجرى الاتفاق على أهل المارستانات والجذمي والعميان في جميع عمله وبنى الصوامع والقناطر والجباب للماء واتخذ عليها المنارات وبنى المنازة من سوس الاقصى الى سويقة بني مضكود هـ. ويقول الشيخ عبد الواحد المراكشي في كتاب المعجب ان المنصور بن بمراكش مارستاناً ما أظن ان في الدنيا مثله وذاك انه تخير ساحة فسيحة باعدل موضع في البلد وامر البنائين بماثقانه على احسن الوجوه فاتفقوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح وامر ان يغرس فيه من الاشجار المشمومات والمساكولات واجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على اربع برك في وسطه ثم امر له بالفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره بما يزيد على الوصف واجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم يرسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجاً عما جلب اليه من الادوية واقام فيه من الصيادلة لعمل الاشربة والادهان والاحكال واعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار من جهاز الصيف والشتاء فاذا نقه المريض فان كان فقيراً امر له عند خروجه بمال يتعيش به ريثما يستقل بنفسه وان كان غنياً دفع اليه ماله ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل اليه وعولج الى ان يستريح أو يموت وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن اهل كل بيت كيف حالكم وكيف القومة عليكم الى غير ذلك من السؤال ثم يخرج ولم يزل مستمراً على ذلك الى ان مات رحمه الله سنة ٥٩٥، وقد كان هذا الملك العظيم قسم العاصمة اقساماً جعل على كل قسم منها مقدماً وما كان وظيف هؤلاء المقدمين الا تفقد الضعفاء والمرملين واليتامى والتعرف باحوالهم للقيام بواجبهم.

ومن اطباءه ايضاً الحكيم أبو بكر بن الطفيل والحكيم القاضي أبو الوليد ابن رشد الحفيد والوزير أبو بكر محمد بن زهر واخته أم عمرو، قال القاضي ابن عبد الملك في التكملة: كانت متقدمة في الطب ماهرة في التدبير والعلاج حظيت بذلك عند امراء بني عبد المومن فكانت تلج قصورهم وتنظر في علاج مرضى نسائهم واطفالهم وامائهم وقد تستفتى في الطب لرجالهم فتزيد بذلك مكانة الى مكانتها التي يقتضيها مجدها المؤئل وشرفها المؤصل، وتوفيت بعد الثمانين وخمسةائة هـ. وقال غيره كما في تاريخ التمدن الاسلامي انها كانت طيبة دار المنصور نفسه، وقد كان المنصور يغمرهم بالاحسان ويغدق عليهم جلائل الانعام الشيء الذي يملك به قلوبهم وينسيهم وحشة الغربة وفراق وطنهم الاصلي، وفعلا كان ذلك وناهيك بما ذكره المقرئ في نفح الطيب ص ٤٤٦ ج ١ قائلا: اخبرني الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة أبو القاسم ابن محمد الغساني حكيم حضرة المنصور بالله الحسني (السعدي) أن ابن زهر لما أشد وهو بمراكش يتشوق ولداً له صغيراً بأشبيلية قوله:

ولي واحد مثل فرخ القطاة صغير تخلف قلبي لديه
وافردت عنه فياوحشي لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقني وتشوقته فيبكي علي وأبكي عليه
وقد تعب الشوق ما بيننا فنه الي ومني اليه
سمعه أمير المومنين يعقوب المنصور فأرسل المهندسين الى أشبيلية وأمرهم أن يحيطوا علماً ببيوت ابن زهر وحاتته ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة وفرشها بمثل فرشها وجعل فيها مثل آلتها ثم أمر بنقل عيال ابن زهر واولاده وحشمه وأسبابه الى تلك الدار ثم احتال عليه حتى جاء الى ذلك الموضع فرآه أشبه شيء ببيته وحاتته فاحتار لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك أحلام فقبل له ادخل البيت الذي يشبه بيتك فدخله فاذا ولده الذي كان تشوق اليه يلعب في البيت فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه، ومن اطباء الموجودين في هذا العصر بمراكش الطبيب الحكيم أبو يعقوب يوسف بن محمد بن الحسن الانصاري المعروف بالاندلسي أحد اصحاب الشيخ أبي العباس السبتي كان زاهداً منزوباً عن البلاط الملكي توفي كما في التشوق سنة ٦٠٥، وكان الجذمي في هذا العصر لهم حارة خاصة خارج باب أنعمات

قبلي مراکش ويظهر أن يعقوب هو الذي جمعهم هناك فقد سلف لنا أنه جمع الجذمي والعميان وأجرى عليهم المرتبات، ثم بعد ذلك نقلوا الى غربي مراکش خارج باب ذكالة ولا أدري الآن متى نقلوا ولا من نقلهم، وحارثهم هذه الآن قرية لها مسجد جامع وسوق، كان مهمما ظهر الجذام في انسان حمل اليها احتياطاً من العدوى لكن مع تدهور الاحوال ذهبت تلك النظامات والمرتبات، وحارثهم لا تزال آهلة بالسكان الى الآن.

الطب في الدولة السعدية : كانت هذه الدولة في القرن العاشر الهجري قد تدارك الله بها أمر المغرب عموماً ومراكش خصوصاً فاحيت منه المعالم وجددت المحاسن ونشرت الحضارة في ربوع المغرب، فان كان السلطان عبد الله الغالب المتوفى سنة ٩٨١ قد اعتنى بمراكش عناية خاصة وخلص بها آثاراً جلييلة، منها المستشفى بحومة الطالعة ووقف عليه أوقافاً يرسم النفقة على المرضى والمجانين والقومة والاطباء ونحو ذلك من لوازمه، وكان تأسيس هذا المستشفى في عشرة السبعين وتسعمائة، وقد أدركه الناس حوالي سنة ١٣٣٠ ولا يزال اذ ذاك مؤثلاً للمجانين والمعتمدين مربوطين بسلاسل حديد كما ادركوا جانبه محولا الى سجن للنساء ويعرف الى الآن بمارستان مولاي عبد الله السعدي، ولقد زرت حال كتابة هذه الاسطر فاذا هو متعدد الديار والبيوت والمنعرجات فوقياً وسفلياً وبه ساحتان احدهما فيها شجيرات والاخرى فارغة، ودهشت لمنظره حيث رأيته قد سقط علويه على سفليه وصار غالبة أكداً من حجارة وتراب وبعض الحيطان مائلة تبكي صروف الدهر وتقلباته وتنبي عن اهمال كبير وعدم عناية بآثار من سلف، ونحن بكل أسف يكون الشيء لدينا في أعلى درجات العظمة فلا يزال به اهمالنا حتى يصير حقيراً مشوهاً - كهذه المؤسسة الانسانية التي صارت خربة يستنقل النظر اليها - ولا يزال به الاهمال حتى يصير في خبر كان ولا يدري موقعه ولا منزلته، وكم لهذا من نظير في مغربنا، فلقد انطمست محاسن وهدت معالم يفخر بها الاسلام وابناؤه لو كانوا يعقلون، فلو كانت آثارنا تحظى لدينا لكنت مدنيتهما فوق كل مدينة أو على الاقل مثل غيرها ولكنت حافزة لنا عن السقوط في مثل هذا الاهمال والموت المعنوي. وكان السلطان احمد المنصور السعدي المتوفى سنة ١٠١٢ هـ أرقى ملوك الدولة السعدية وأغناهم بالعلوم والمعارف^(١)

(١) من أغرب ما جاء عنه ما في بشار أهل الايمان ذيل معالم الايمان عن سائح ورد عليه أنه وجده يدرس الطول في البيان بالمسجد وهذه غاية لم تكن للملك.

وخصوصاً علم الطب، وكان له بطيبه الخاص أبي القاسم بن محمد الغساني اعتناء واهتبال لمعرفة بالفن واتقانه اياه، ولهذا الطيب موضوعات في الطب منها كتابه حديقة الازهار في شرح ماهية العشب والعقار الفه برسم السلطان المنصور وشرح طالعته وخاتمة باسمه، استهله بقوله : الحمد لله انفرد بالبقاء والقدم وأبرز مخلوقاته الخ حتى يقول: وبعد فانه لما قلت انصار العلم ودرست معاملة وافلت كواكبه فيض الله عالم الخلفاء وخليفة العلماء أمير المؤمنين أبا العباس المنصور..... ولما كان اهتمامه بفن الطب فوق كل اهتمام وكان أهم فتونه الى الطب معرفة العقاقير والعشب خدمت بابيه الكريم بهذا المصنف القويم..... ورتبته على حروف المعجم الخ وفرغ منه يوم السبت ١٧ ربيع النبوي سنة ٩٩٤ وهو في تسع كرايس وله مختصر محذوف المكرر، ومن موضوعاته شرح منظومة ابن عزرون في الحميات وغير ذلك من التأليف.

ومن أطباء عصر المنصور الطيب الحكيم عبد الغني بن مسعود ابن الحسن الزموري تلميذ أبي القاسم الغساني، وله أثر جليل في الطب هو كتابه (القانون المفيد في علاج الحصا بقول سديد) في سبع كرايس رتب البحث فيه على خمسة عشر باباً آخرها في شرح المفردات الواقعة في الكتاب، استهله بقوله : الحمد لله الملك العلام خلق الانسان من نطفة امشاج في أحسن تقويم وابدع احكام، حتى يقول: وبعد فلما كانت والحفظ بالله علة الحصا عمت بها البلوى وكثرت بها (الى) اطباء الوقت الشكوى وكنت على حدانة سني عام ٩٩٤ شاركت اطباء وقتنا والمشار اليهم بذلك في وقتنا فأظهروا لي الجفا وأبدى كل واحد منهم ما كان خفي فلجأت من بينهم الى رئيسهم الاشهر العارف في هذا الفن وغيره. بالخط الاوفر... أبي القاسم ابن الطيب الكبير المرحوم أبي عبد الله محمد الغساني فتلقتني بالقبول وبلغني من القراءة عليه من هذا الفن المامول، ثم يصرح باهدائه الى المنصور ويطلب منه قبوله اياه. ليتنبه القاري الى هؤلاء الاطباء الذين ذكرهم الزموري فان ذلك يدلنا على كثرتهم وكونهم منتظمين كأن لهم مجعاً خاصاً له رئيس كما ترى، وقد اشتهر المنصور بالاعتماد على الطب وهناك واقعة الطاعون الذي وقع في أيامه بسوس حيث كتب وهو بفاس الى خليفته بمراكش يوصيه بما يدل على ان ما يسمى اليوم الحجر الطبي كان معروفاً في ذلك